شعر الرصافي البلنسي
أبي عبد اللّه محمد بن غالب
(٥٧٢هـ)

م.م.كوثر هاتف كريم
كلية التربية للبنات - جامعة الكوفة

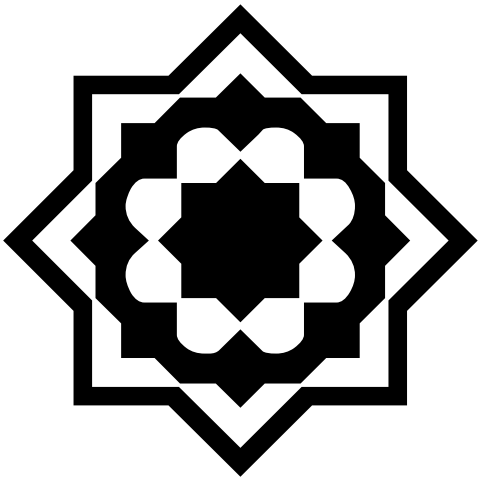

سيرته

هو محمد بن غالب الرصافي البلنسي ويكنى بابي عبد الله ،اصله من رصافة بلنسية المدينة الاندلسية المعروفة ، بها ولد ونشأفيها فنسب اليها ،ولم يحددالذين ترجموا له سنة ولادته لكن المراكشي في كتابه ((المعجب)) يقول في معرض الحديث عن مدح الرصافي لعبد المؤمن[1] احد امراء مدينة بلنسية يومذاك انه لم تكمل له يومئذ عشرون سنة .فاذا كان نزول عبد المؤمن ((بجبل الفتح))(جبل طارق) عام (٥٥٥هـ) فمعنى هذا ان مولد الرصافي لم يتقدم عام (٥٣٦هـ)[2]وهو شاعر الاندلس في اوانه ،بما اشتهر عند الخاص والعام من إحسانه ،ويذكر عنه ابو جعفر بن سعيد بقوله : ((هو ابن رومى الاندلس لما رأه من حسن اختراعه وتوليده للمعاني ....))[3].وترجم له ابن الابار بقوله :((كان شاعر وقته المعترف له بالاجادة مع العفاف والانقباض وعلو الهمة والتعيش من صناعة الرفو التي كان يعالجها بيده ،لم يبتذل نفسه في خدمة ولا تصدى لانتجاع بقافية ،وسكن غرناطة وقتاً وامتدح واليها حينئذ ،ثم رفض تلك العلق ورضى بالقناعة مالاً ....))[4] ولم يطل به العهد في بلنسية ،فقد غادرها متوجهاً الى مدينة مالقة وهو في العاشرة من عمره ،او بعد ذلك بقليل أي حوالي سنة (٥٤٦هـ) اثناء النزاع بين ابن مردنيش وصهره ابن هلال [5]على احتياز بلنسية ،على ان مالقة لم تكن اهدأ حالاً – في السياسة – من اختها بلنسية في ذلك الوقت ،لذلك كانت هجرة غالب والد محمد سعياً وراء الرزق لا هرباً من الفتن وتقلبات الاحوال .

كان الرصافي محباً للأدب مغرماً بالشعر فواظب على طلب ودراسة الادب ،ويذكر المقري

---

(١) هو احد القواد الذين دخلوا بلاد الاندلس بعد سقوط دولة المرابطين بيده وبذلك اصبحت دولة الموحدين تحت سيطرته سنة (٥٥٥هـ)ويعد اعظم شخصية جعلت من المغرب والاندلس دولة واحدة قوية توفي سنة (٥٥٨هـ) ينظر عنوان الدراية : الغبريني ١٦٩.

(٢) المعجب في تلخيص اخبار المغرب :عبد الرحمن المراكشي

(٣) المغرب في حلى المغرب :لابي سعيد المغربي ٢ / ٣٤٢.

(٤) تكملة الصلة :ابن الابار

(٥)هو احد القواد الذي استولى على بلنسية عام (٦٢٦هـ)فدخلها وسكن القصر ،واخذ البيعة لنفسه وحكمها حتى عام (٦٣٥هـ) حينما استولى عليها الملك ارغون . ينظر المغرب :٢/ ٣٠٣ .

حكاية تدل على نبوغ الرصافي الشعر منذ نعومة اظفاره وذلك بقوله : ((إن الرصافي المراهـــق كان في مالقة يطلب العلم وان الطلبة صنعوا نزهة بالوادي الكبير بمالقة ،وارتجل الرصافي بيتين في تلك الرحـــلة فلما سمعهما استاذه استنبله وقال له إنك ستكون شاعر زمانك))[1] ويستدل من تحديـــد المراكشي لســـن الرصافي عند مدحه عبد المؤمن ((ان الشاعر مات شاباً ولم يتجاوز في عمره السادسة والثلاثين وهوشيء لم يقل به احد ممن ترجموا له ،ولو صح لكان لافتاًللنظر مستوقفاً للتـــعليق ،ولكن لاتوجد شواهد تأريخية التي تنقضه اوتعدّله لضعف الصلة بين شعر الرصافي وبين الاحداث التاريخية وابتعـــاده عن السياسة في اكثر الاحوال))[2].

ولعل اول مشاركة له في انشاد الشعر ذلك عندما استدعاه عبد المؤمن الى (جبل الفتح) مع مجموعة من الشعرء وكان في مطلع ايام شبابه وانشده الرصافي يومئذ قصيدته التي مطلعها : (من البسيط)

لو جئت نارَ الهدى من جانبِ الطوُّرِ قَبَسْتَ ما شئتَ مِنْ عِلْمٍ ومن نُوْرٍ [3]

ولم يكن الرصافي أول المنشدين ،غير ان استدعاءه مع الشعراء يدل على احترازه شهرة بالشعر قبل ذلك وعلى قدرٍعالٍ في قول الشعر ،شهرة تجاوزت حدود مالقـــة وسمع بها عبد المؤمن ، وانه قد تخطى عهد التجارب الشعرية الاولى ،كما قال عنها كثير من اورد هذه القصيدة انها من احسن القصائد التي قيلت في تلك المناسبة ،فمن المعقول ان يكون عمره ،يومذاك لايزيد على عشرين عـــاماً ،وان كان من باب التقدير لعبقريته الشعرية المبكرة ان يقال إنه لم يكمل العشرين ،فقـــد كان ذا همـــةٍ عالية وطمـــوح عظيم،فذاع صيته في البلاد ،وطارت شهرته في الافاق.

لقد اتصل الرصافي بأمراء هذه البلاد ومدحهم فاعجبوا به إيما اعجاب حتى قيل فيه انه اصبح شاعر ((الخلافة)) الموحدية وداعية لها بين قومـــه في الاندلس [4]وبعد حين من الزمـــن نجد الـــرصافي وفي كثير من شعره انه انصرف عن هذا الاتجاه واضعف استشرافه ليكون مدّاحاً في بلاط الملوك والامراء

(١) نفح الطيب : المقري ١٠٧٣ .

(٢) ديوان الرصافي البلنسي : المقدمة بقلم الدكتور احسان عباس ١٠ .

(٣) الديوان :٧٧.

(٤) ينظر مقدمة الديوان :١٠ .

ولعل السبب في ذلك يرجع لامور تتعلق بشخص الرصافي وتربيته الانطوائية التي يبتعد به عن بلاط الملوك وتقربه من حلقات الاصدقاء ، تربية جعلته يشبه في هذا المقام ((غيرة الجاهلية)) التي تنأى به عن ان يسخّر قريحته الشعرية في سبيل التكسب بالشعر وهو في ذلك يشبه استاذه الغني الشاعر ابن خفاجة فكلاهما كان يؤمن بهذا المذهب أي((مدح الملوك))[1] ،وكلاهما رحب بمقدم دولة جديدة ،فقد رحب ابن خفاجة بمقدم المرابطين ومدح امرائهم ، ورحب الرصافي بمقدم الموحدين ومـــدح بعض امرائهم ثم نفى عن نفسه كل ذلك وعاش قانعاً بحرفة الرفو التي ورثهاعن ابيه ،فقدكان يستهين بما قد تثمره صلته بأولئك الملوك والامراء [2] من ذلك قوله : (من الطويل)

يقول اناسٌ: لو رفعتَ قصيدةً ... لأدركتَ حتماً في الزمانِ بها امْرَاً

وَمِنْ دونِ هذا غَيْـــرَةٌ جاهلّيةٌ ... وإنْ هيَ لـــم تَلزمْ فقد تلزمُ الحُرَّا

متى أرْسَلتْ أيدي الملوكِ هباتها ... و لم يُوْصِلُوا جاهاً و لم يُجْزلوا ذُخْرا [3]

وهو في ذلك يشبه في معناه قول ابي حيان الاندلسي :

لاتصحبن ملكاً او من يلوذ به ... وان تنـــل منهـــم عزاً وتمكيـــناً

يستخدمونك في لذات انفسهم ... ويذهب العمـــر لادينـــا ولا ديناً [4]

فكما انصرف الرصافي عن مدح الملوك كذلك، نجده قد اقلع عن حياة المجون التي اعتادها بمـــالقة و لم يبقَ له من حياة اللهو الاالتفرج بمناظر الطبيعة التي تتمتع بها مدينة غرناطة فكان يرتاد متنزهاتها مثل (نجد ،وحور ،ومؤمل) مع صديقه الشاعر الكتندي [5] ويذكر انه خرجة مرة في نزهة مع رفاقه وليس معهم ابوجعفر بن سعيد فبعثوا يستدعونه ويحثونه على الانضمام اليهم ،فلما انضَّم اليهم ،وقضوا يوماً جميلاً وما زالوا بالرصافي الى ان شرب معهم فقال الكتندي :

غلبناك عما رمتَه يا ابن غالب ... بـــراحٍ وريحانٍ وشـــدوٍ وكاعبِ

وقال ابو جعفر :

---

(١) ينظر مقدمة الديوان :١٠.

(٢) ينظر المصدر نفسه : ١١.

(٣) الديوان :٧٦.

(٤) ديوان ابي حيان الاندلسي :٩٩ .

(٥) هو ابو بكر محمد بن عبد الرحمن من نبهاء شعراء عصره ،سكن غرناطة وكان اديباً وكاتباً وشاعراً وذا معرفة باللغة توفي سنة (٨٥٤هـــ) ينظر زاد المسافر :صفوان ٥٣ . والمغرب :٢٦٤/٢ .

بدا زهدهُ مثل الخضابِ فلم يزلْ به ناصلاً حتى بدا زهدَ كاذب [1]

وسار الزمن وقضى الرصافي فترة في غرناطة اكد فيها الشاعر زهده في الملذات وفي عدم الترددعلى الامراء والملوك ،فلزم حرفته وابى ان يتكسب بشعره بقوله: (من الكامل)

نعماءُ جُدْتَ بها وإنْ لم نَلتْقِ فيمــنْ يُدَنْدنُ حَوْلَهــا وَيَحْــوَمُ
لما أَدَرْتُ إلى صنعيكَ ناظِري فرأَيْــتُ ما أوْلَيْــتُ فهو عميــمُ [2]

ومعنى ((التكسب)) بالشعر يعني شيئاً محدداً في المفهــوم الاندلسي شيئاً يفرقــه عن ((الكسب)) العفوي غير المقصود فقد كان كثير من الشعراءالاندلسين الذين جالوا على ملوك الطوائف ومدحوهم في الوقت نفسه أبوا ان يتخذوا من الشعر وسيلة مباشرة للعيش [3] فكــان الــرصافي بأمكانه ان يحرم الامراء والملوك اكثر مما يستطيعون هم ان يحرموه وهو الشاعر المشهود له بالتقدم لأن في يده وسائــل التخليد بقوله : (من الطويل)

متى أَرْسَلتْ أَيدي الملوكَ هباتِها و لم يُوْصِلُوا جاهاً و لم يُجْزلوا ذُخْــرا
فقد سَرَّني أَنيَّ حَرَمْتُ عُلاهُمُ حُلَىً مُحْكماتٍ تُخْجِلِ الأَنْجَمَ الزَّهْرا [4]

وقنع الرصافي في عيشته وتحدث عن فضل القناعة التي ترفعه وتصونه من الذّل بقوله :(من البسيط)

صَوْنُ الفتى وَجْهَهُ أَبقْى لِهمّتِه والرِّزقُ جــارٍ على حــدٍّ ومِقْــدَار
قنِعْتُ وامتدَّ مالي فالسَّماءَ يَدِيْ وَنَجمْهُا درهــمي والشمسُ دِيناري [5]

وظل الرصافي يرتحل حيناً بعد حين عن مالقة حتى قضى وطراً من رحلاته هذه بعدها عاد الى مالقة ،وفيها تعرف الى بعض الشخصيات المعروفة في عصره وعلى الرغم من كل مدارج الرجحان التي ارتقى لها الرصافي ظل قلقاً ويشتد به الاسى عندما يتذكر مسقط رأسه بلنسية ويحس بلوعة الحنين اليها بقوله :(من الطويل)

---

(١) ينظر مقدمة الديوان : ١٢.

(٢) الديوان :١٣٢ .

(٣) ينظر مقدمة الديوان : ١٣.

(٤) الديوان :٧٦.

(٥) المصدر نفسه :٩٤.

بِلادي التي رِيْشَتْ قُوَيْدِيمتي بـــها ... فُرَيْخـــاً وآوتني قَرارتَهـــا وَكْـــرا
مباديءُ لينِ العيشِ في ريِّقِ الصِّبا ... أبى اللهُ أَنْ أَنْسى لهـــا أَبداً ذِكْـــرا
أكلُّ مكانٍ راحَ في الارضِ مَسْقطاً ... لرأسِ الفَتى يهواهُ ما عـــاشَ مُضْطرْا[1]

وظل الرصافي يتذكر بلنسية ومعاهدها الهامة كالرصافة نفسها وجسر معان والبحيرة وسائر المناظر الطبيعية التي تتمتع بها تلك المدينة ،فكانت مالقة متبوأه ومستقره الاخير ،وظل عازباً لم يتزوج شأنه في ذلك شأن ابن خفاجة ،متفرغاًللحياة الادبية الخالصة ،بما يخالطها من تحرر وانطلاق الى أن وافته المنية سنة (٥٧٢هـــ) فتوقف قيثاره الجميل عن ارسال الانغام والالحان العذبة.

(١) الديوان : ٦٩.

شـــــــعـــــــره :

لاشك أن الرصافي البلنسي من اكبر شعراء عصره ،انجبته شرق الاندلس في عصر الموحدين ،فقد كان ذا قريحة مواتية فطرية ،ذلك ماشهد به كثير ممن عاصره أو ترجم له من ذلك قول ابن الابار :((كـــان شاعر وقته ،المعترف له بالاجادة ... ينظم البديع ويبرح النظم وكان من الرقة والسلاسة والطبع وتنقيح القريض وتجويده على طريقة متحدة ...))[1] في حين اهمه ابو الحسن بن حريق بالاقـــلال لكن ديوانه يدل على غير ذلك فكما سلّموا لـــه بالأجادة في الشعر سلّمواله بالاجادة في المقاطع الخمسة وما دونها فضلاً عن مطولاته التي لاتقل جودة عنها [2] فمن المقطعات الرائعة التي شغلت من جاء بعده من الشعراء ابياته التي قالها في وصف للنهريقول فيها :(من الكامل)

وَمُهَدَّلِ الشطيَّنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... مُتَسَيَّلٌ مِـــنْ دُرَّةٍ لصَفائه

فاءَتْ عليه مع الهجيرة سَرْحَةٌ ... صَدِئَتْ لفيْئَتها صَفيحةُ مائه

فتراهُ أَزْرَقَ في غلالةِ سُمْرَةٍ ... كالدّارعِ استلقى بظلِّ لوائه [3]

انها صورة رائعة للنهر الذي تهدلت عليه اغصان الشجر على جانبيه ولحسن وروعة صفائه ولمعانه كأنه ينبع من درر بيضاء لا من جوف الارض ،وظلال هذه الاشجار على صفحة النهر كالصدأ على صفحة لامعة ،فالصورة التي رسمها الشاعر كأنها لوحة فنية يستريح اليها الخاطر ويتمتع بفيئها لما فيها من منظر الماء المتدافع تتدلى من حوله الاشجار اللامعة .

لقد كان شعر الرصافي سهلاً محبباً الى القلوب مؤثراً في النفوس ،جـــزلاً رصيناً محكم السبك ،قوي العبارة متين التركيب ،ولا عجب فالرصافي شاعر سما على كثير من الشعراء بقوة شعره الذي يقوم على التجويد والتنقيح وهذا لايفقد شعره الرقة والسلاسة ،لانه ترسم خطى من سبقـــه من الشعراء القدامى ،فكان يمثل شعر الاندلس يومذاك ،وكان من المحافظين على رونق الشعـــر الجزل المبتعدين عـــن ميدان الموشحات والازجال التي عرفت بها بلاد الاندلس. [4]

---

(١) التكملة : ٥١٩،وينظر الوافي بالوفيات :الصفدي :٤/ ٣٠٩

(٢) ينظر مقدمة الديوان :١٦.

(٣) الديوان :٢٦-٢٧.

(٤) ينظر مقدمة الديوان :١٦.

ويعد الرصافي ((الوريث الشرعي)) للمذهب الذي اختاره ابن خفاجة في شعره ،وكان هذا المذهب منذ عهد ملوك الطوائف بالأندلس فقد أخذ ((يقيم خطاً فاصلاً بين المقطوعة والقصيدة ، اما المقطوعة فانها – لتقارب أجزائها – تقوم على طلب الصور وتهدف الى ايجاد التعليل حسناً كان ذلك التعليل او مستهجناً ،واما القصيدة فانها بناء مكتمل يختار فيه الشاعر سياقاً من الجزالة البدوية ،ويدرج فيه الصور)) [1] وعندما جاء الشاعر ابن خفاجة اقام للقصيدة على قاعدة المقطوعة ،فكان يحشد صوراً متراكمة متلاحقة يرهق فيها المتلقي ،وهو يجري وراء تخيلاته وصوره .

وكان الرصافي يعلو بخياله الى أسمى الآفاق ويغوص الى اقتناص المعاني الجيدة الى الاعماق ،معبراً عن معانيه الرائعة بأسلوب سهل جميل شرق الديباجة يمتاز بالرقة والليونة ،ويتسم بالقوة والجزالة ،ويخلو من التعقيد والعسر ،والغلو في التجميل ويصبه في قوالب متناسقة من الالفاظ الجميلة البديعة ،وبعبارات موسيقية يتانق في اختيارها ، ويطيل التأمل في نقد رقتها وجرسها وبريقها من ذلك قوله في وصف الحَمامَ: (من مجزوء البسيط)

أُنظرْ إلى نَقْشيَ البديعِ ... يُسْليكَ عن زَهْرةِ الربَّيعِ
لو جُنِيَ البحرُ مِنْ رياضٍ ... كانَ جَنَى روضيَ المرَيعِ
سَقانَي اللهُ دَمْعَ عَيْني ... ولا وَقَاني جَوَى ضُلُوعِي
فما أُبالِي شقاءَ بَعْضِي ... إذا تَشَقَّيْتُ في جميعي
كيف تراني وُقِيْتَ ما بي ... أَلسْتُ مِنْ أعْجَبِ الرُّبوعِ [2]

وعلى الرغم من خلو اكثر شعر الرصافي من التصنيع الا أن هناك بعض الابيات التي طرزها ببعض انواع البديع جاءت طبيعية جملية لاتكلف فيها من ذلك قوله : (من الكامل)

حُمِدُوا إلى جَدٍّ وأعْقَبَهُمْ ... حَمْدٌ بأحمَد ما لَهُ حَدُّ [3]

وقوله : (من مجزوء البسيط)

ياراكباً واللِّوَى شمالٌ ... عن قَصدِه والغَضَا يمينُ
وحيِّ عنِّي إنْ، جُزْتَ حَيَّا ... أَمْضَى مَوَاضيُهم الجفونُ [4]

---

(١) ينظر مقدمة الديوان : ١٦.

(٢) الديوان :١٠٧.

(٣) المصدر نفسه :٥٦.

(٤)المصدر نفسه : ١٣٨.

وقوله في موضع آخر :(من الوافر)

رميَّ الموتِ إن السَّهْم صَابا ... وَمَنْ يَدْمِنُ على رَمْيٍ أَصابا

ومـــا معنى الحياةِ بلا شبابٍ ... سواءٌ مات في المعنىَ وَشابا [1]

ومن جميل جناسه قوله : (من البسيط)

غُزَيِّلٌ لم تَزَلْ في الغَزْلِ جائلةً ... بَنانـــُهُ جَوَلانَ الفِكْرِ في الغَزَلِ [2]

وغير خافٍ ما في هذه الابيات من محسنات وبديع .

ولاشك ان شعر الرصافي في المقطعات كان يعجب معاصريه، لانه مجمـــوعة من المحاولات لتوليد المعاني الجديدة وحسن التعليل وابراز الصورة المبتكرة ،ولاجل هذا شبهوه بأبن الرومي ((خلا ان اكثر معاني ابن الرومي المولدة عقليَّ في طابعه ،اما معاني الرصافي فانها تصويرية تخيلية)) [3] ، حتى اصبح ذلك محكاً لقدرة الشاعر واجادته ،كما في مقطوعاته في وصف الغلام والحائك والنجار وغيرها ،فانها تـــدل على اجادة النقل والتصوير واختراع المعاني كما في وصف النجار يقول فيها : (من الطويل)

تَعلَّم نَّجـــاراً فقلتُ لعلَّـــهُ ... تَعَلَّمها مِنْ نَجْرِمُقْلته القَلبـــْا

شقاوةُ أعواد تصَدَّى لجَهْدها ... فآونةً قَطعْـــاً وآونةً ضَرْبـــا

غَدَتْ خَشَباً تَجْني ثمارَ جنايَةً ... بما اسْترقَتْهُ مِنْ معَاطفه قَضباً [4]

لقد ابدع الرصافي في وصفه للنجار بصورة رائعة متحركة مجسمة وكأنه يكسبها حياة فقـــد وصور هذه الاعواد قد لقيت جزاء ما اقترفت فقد سرقت قوامها من معـــاطفه وهي قصب فاستحـــالت الى خشب يابس وبذلك قطفت ثمرات ما جنته يداها .فقد ابتكر اجمل الصور للنجار بصورة تدل على دقة الملاحظة عنده ، لقد كشفت كل مقطوعـــة شعرية عند الرصافي فكرة اوجانباً من جوانب الجمال في الحياة والطبيعة .

ولعل لايخفى اثر ابن خفاجة في الرصافي سواء في الحياة او الشعـــر ، فعندما يتعرضوا للجبل نجد

---

(١) الديوان :٤١.

(٢) المصدر نفسه :١٢٢.

(٣) مقدمة الديوان :١٧.

(٤) الديوان :٤٥.

الرصافي في قصيدة يمدح فيها عبد المؤمن عند نزوله بجبل الفتح بوصف رائع يناظر فيها ابن خفاجة في وصفه للجبل ايضاً فبين الوصفين صلة وقربى فكلاهما يرى في الجبل الصلابة والعظمة والكبرياء ففيه الرصافي يقول : (من البسيط)

وأدْرَدٍ مِنْ ثناياهُ بما أخَذَتْ ... منه معاجمُ أَعْوادِ الدَّهارير
مُحَنَّكٌ حَلَبَ الأيَّامَ أَشْطُرَها ... وساقها سَوْقَ حادي العِيْر للعير
مُقَيَّدُ الخَطْوِ جَوّالُ الخواطرِ في ... عجيبِ أَمْرَيْهِ من ماضٍ منَظور
قد وَاصلَ الصمتَ والإطراقَ مفتكراً ... بادي السكينةِ مُغْفَرِّ الاسرير
كأنه مُكْمَدٌ مما تَعَبَّدَهُ ... خَوْفُ الوعيدين من دكٍّ وتسيير
حتى كأنَّ له في كلِّ آونةٍ ... سلطانَ رقٍّ علىَ الدُّنيا وَتسْخير [1]

وقال ابن خفاجة فيه :

وقورُ على ظهرِ الفلاة كأَنَهُ ... طَوالَ الليالي مفكرٌ في العواقبِ
يلوثُ عليه الغَيَّم سودُ غمائمُ ... لها وَمَيْضُ البرقِ حُمر ذوائبِ [2]

من النصيين نلمح اثر بن خفاجة في الرصافي فكلاهما ((رأى في الجبل شيخاً وقوراً ناظراً في اطراف كأنما يفكر في أمر ،وزاد الرصافي على الصورة باب جعله مكمد اللون من شدة ترقبه ليوم القيامة حيث يصاب بالدك والتسيير)) [3] اما ابن خفاجة فكان اكثر تشخصياً فقد خلع سمات إنسانية على الطبيعة التي يمثلها هنا الجبل فهو انسان مجرب حكيم فقد انطق الجبل وجعله يتحدث ويخبر عن الاوائل وعن ماضي الايام ،ويشكو التغير ،ونجد الجبل عند الرصافي جثة جامدة خرساء يستدل عليه من ملامح وجهه وسيماه ،لكنه لاينطق ولا يتسامر صامتاً كمداً خوفاً من الوعيدين اللذين اشار اليها القرآن الكريم وهما دكُّ الجبال وتسييرها. [4]

ولعل اثر الثقافة الدينية واضحة جليّة في شعر الرصافي فهو تارة يقتبس من معانٍ قرآنية ،وتارة يستعمل الفاظه واخرى يضمن عباراته ،ولاشك ان هذا واضح في قوله : (من السريع)

---

(١) الديوان :٨٣.

(٢) ديوان ابن خفاجة :٢١٥.

(٣) مقدمة الديوان :١٩.

(٤)ينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين :د. محمد مجيد السعيد :١٣٩.

ما أنْــزغَ الشيخينِ بينَ الــوَرَى إبليسُ لا قُــدِّسَ ، وأبنُ الخليعْ [1]

وقوله في موضع اخر : (من البسيط)

لو جئتَ نارَ الهُدى من جانبِ الطوُّرِ قَبَسْتَ ما شئتَ مِنْ علْمٍ ومنْ نُوْرِ

من كلِّ زهراءَ و لم تُرفَــعْ ذُؤابَتُــها ليلاً لسارٍ و لم تُشْبَــبْ لِمَقــرُورِ

فَيْضَيَّةُ القَــدْحِ مــن نُــورِ النبوَّةِ أَو نورِ الهــدايةِ تَجْلُو ظُلْمَةَ الــزُّورِ

حتى أَضاءَتْ من الإيمانِ عَــنْ قبــَسٍ قد كان تَحْتَ رمادِ الكُفْرِ ،مَكْفوْرِ[2]

ويعد الرصافي اكثر شاعر بين شعراء عصــره استغل ثقافته الدينية ،ولاسيما المعاني القرآنية في بــناء قصائده وتقوية مضامينها ، وان كانت اغلب تلك المعاني المستوحاة من قصــة النبي – موسى – (عليه السلام) وهذا وان دلت على شيء فانها تدل على مدى تأثر الشاعر بالقرآن الكريم .

ومن مظاهر ثقافته الاخرى أتكأه على معاني المشارقة في كثير من شعره من ذلك قوله :(من البسيط)

غضِ عَبْرَتَيْكَ ولا تَجْزَعْ لفادحَــةٍ تعْــرُو فكــلُّ سبيلٍ مِنْ سبيــــلِ أَبِ [3]

فهذا البيت ينظر الى قول ذي الرمة :

أعاذل قد جربت في الدهر ما كفى ونظــرت في اعقاب حــق وباطــل

فــأيقــن قلبي انني تابــــــع أبي وغائــلتي غــول القرون الاوائــل [4]

وفي بيت اخر يقول الرصافي : (من البسيط)

غادَوْا بحلبَتَهــمْ مِكنْاسَةً فَغــَدتَ بغــرِّ تلك الحُــــلى مَعْسَولةَ الحَلَبِ [5]

ينظر فيه الى بيت ابي تمام :

يايــوم وقعة عمورية انصرفــت عنــك المنى حفلاً مَعْسَــولةَ الحَلَبِ [6]

وفي شعره كثير من هذا الاخذ والاستفادة والتأثر ،وهذا لايعني ضياعٌ لشخصية الشاعر وفقدان الابتكار والابداع بل على العكس من ذلك فقد كانت أشعاره تدل على إرادته وإصالته .

---

(١)الديوان :١٠٨

(٢) المصدر نفسه :٧٧- ٧٨

(٣) المصدر نفسه :٣٦

(٤)ديوان ذي الرمة :٧١

(٥)الديوان :٣٤

(٦)ديوان ابي تمام :١٤

لقد طرق الرصافي اكثر أغراض الشعر العربي التقليدي فقال في المدبح والرثاء والغزل ووصف الطبيعة ،وله في كل منها مشاركة بالاتجاهات العامة التي تسير عليها ،واختلاف يميزه عن الآخرين بما يعتمده من عناصر ذاتية .

ولئن كان المديح مذهباً بارزاً في الشعر العربي ،ومذهباً سائداً في عصر الموحدين في الاندلس ، ان دواعيه اشد لدى شاعر يتخذه وسيلة لغاية ابعد ،هي طموحه الى التقدم في مدارج الرقي عند الممدوح وقد كان هذا الطموح مفتاح لشخصية الشاعر ،وانك لو تصفحت الديوان لاتكاد تجد مدحاً من اجل المال او اللباس او الارض كما تجده في اكثر دواوين معاصريه ،واذا دل هذا على ((الحال الحسنة)) فانه يدل كذلك ،واكثرمن ذلك على ان مطلب الرصافي في الحياة اكبر من الشبع واللبس .

لقد تبدلت الصورة وتغيرت العلاقة القائمة بين الشعراء والامراء والملوك وذلك بدخول الاندلس في ظلال الحكم الموحدي فزعماء الموحدين عرفوا بثقافتهم العالية لاسيما اللغة العربية وآدابها ، فكان عبد المؤمن معلماً يعلم الصبيان علوم الدين واللغة وكانت له مواقف عديدة تؤكد ميله الى الشعر وعنايته به ،فعند عبوره الى الاندلس لأول مرة ، اجتمع لديه في جبل الفتح وفود من وجوه بلاد الاندلس للتهنئة والمبايعة فاستدعى الشعراء في ذلك اليوم وسمع من كثير منهم ، وكان الرصافي البلنسي احد هولاء المنشدين كما ذكرنا سابقاً فكانت له ملاحظات نقدية على قصائدهم تدل على تذوق للشعر ومعرفة به [1] ،وهذه الرغبة لدى الخلفاء في سماع المدح حفزت الشاعر ودفعته الى القول والتجويد لانه يدرك مسبقا مقدار ثقافة السامعين ورهافة ذوقهم ودقة ملاحظاتهم فالرصافي مدح مسؤولين عديدين ، وعلى الرغم من ذلك فهو لم ينغمس في تيار الشعراء المرتزقة ، وهو الفقير الحال الذي ليس له ثروة سوى مايكسبه من حرفة الرفو ، ولعل السبب وراء ذلك هو الكرامة وحفظ ماء الوجه وقد عبر عنها ((بغيرة الجاهلية)) كما اوضحناه سابقا فهذه الغيرة او الحمية هي التي تمنعه من الاستهانة ببنات فكره ، فهو حينما مدح بعض الرجال فهو اما مستدعى كما استدعاه عبد المؤمن في جبل الفتح وذلك لايستطيع الرفض ،واما ان يمدح لعلاقة تربطه بالممدوح وهي اقرب الى الصداقة منها الى أي علاقة اخرى تقوم بين شاعر وممدوح لذلك كان الرصافي حينما ينشد قصيده ليس من اجل هدف مادي او غاية يرجوها وهو بلا شك موقف يختلف تماماً عن موقف المداحيّن الآخرين الذين يقطعون المسافات الطوال من اجل استرقاق قلوب الممدوحين ونيل ما تجود به اياديهم .[2]

---

(١) ينظر المعجب :٢٨٦ .

(٢)ينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين :١٣٧ .

ولعل للسياسة دوراًخطيراًفي ذلك الشأن وكان على المداح ان يتقن من التلون والتملق والتمدح لاجل ان يعيش ، وهذا مما يتفق ولا ينسجم مع نفسيات كل الشعراء فيرفع انذاك صوت النـــزاهة والعفـــة والصدق الفني المتمثل بشخصية الشاعر الرصافي الرافض المتاجـــرة بالشعر ، والاعتماد عليه في حياتهم ،ويوضح الشاعر موقفه هذا بأنه حماية للشعر وصون له من الضعة والمهانة بقوله : (من الطويل)

كَفَى ضَعَةً بالشِّعْرِ أَنْ لَسْتُ جالباً إليَّ به نَفْعاً ولا رافعاً ضُراً [1]

والرصافي عندما يمدح تجده يصف ممدوحه بالصفات المحببة الجميلة ،كالكرم والشجاعة والاباء وغير ذلك فالممدوح كريم جواد كثير العطاء يعطي الناس مما وهبه الله سبحانه وتعالى فاذا قصدته لايردك من ذلك قوله في قصيدة يمدح بها عبدالله محمد بن عبد الملك بن سعيد : (من الكامل)

أَيَداً تفيضُ وخاطراً مُتَوَقِّـدًّا دَعْها تَبِتَ قيسَاً على عَلَمِ النَّدى

نِعْمَ اليدُ البيضاءُ آنَسَ طارقٌ نارَ الذَّكاءِ على مكارمِها هُدَى

نعماءُ أَعيْاني التماسُ مَكانها لو قد وجدتُ لها وليّاً مُرشْـداً

رجلُ الزَّمان حَزَامةً وَشَهامة وسريُّـهُ حَسباً اَغـرَّ وَمجيـداً

شَهمُ على رأس الدهاءِ مُحلَّقٌ لو شاءَ أفْردَ من اخيه الفـرقدا

إنَّ الكرامَ بني سعيد كلمَّا وَرِثوا النَّدى والمجدَّ أوْحدَ أوْحَدا

والى النجوم الزُّهْرِ يَرْفَعُ طَرْفَهُ مَنْ لم يُحاولْ غيرَ دارِكَ مَقْصداً

فإليكَ شُكْرِي تُحْفَةً مِنْ قادمٍ مَغْناكَ زارَ وَمِنْ نداك تـزَوَّدَاً [2]

ولا يخلو مديحة من روح الغلو والمبالغة بل هي كثيرة فيه وتغذية المدح بصور ومعانً دينية مستوحاة من قصة النبي موسى (عليه السلام) في اغلب الاحيان ،وتتجلى نزعة المبالغة في شعره بوصف الممدوح بصفات تخرجه عن كونه بشراً وتجعله شيئاً آخر مقدساً منّزهاً شبيهاًبالانبياء فهو نور تكل عن ادراكه الابصار ويتحكم بالقضاء وتتجلى هذه الروح بوضوح في مدحه لعبد المؤمن بجبل الفتح التي مطلعها : (من الطويل)

لوجئتَ نارَ الهُدى من جانبِ الطوُّرِ قَبَسْتَ ما شئتَمِنْ عِلْمٍ ومِنْ نُوْرِ [3]

---

(١) الديوان :٧٦.

(٢) المصدر نفسه : ٦٢- ٦٤.

(٣) المصدر السابق نفسه : ٧٧.

ويكرر الرصافي هذا الاسلوب في اكثر من مدحة فممدوحه ((مكرم معظّم أقرب الى النبوة ان لم يكن نبياً ،والشعر لايبلغ صفاته ولايحيط بمآثره وهو حقيق بآيات قرآنية فيه لاأبيات شعرية))[1] كما في قوله : (من البسيط)

عَدْلاً مَلأْتَ به الدنيا فأنت بها ... بينَ العبـــادِ وبيـــنَ الله ميَـــزانُ

أبياتُ مَعْلُـــوةٍ في كلِّهـــا لكمُ ... أُسٌّ كريمٌ على التَّقْوى وبُنْـــيانُ

فَلَوْ لَحِقْتُمْ زَمانَ الوحيِ نُزِّلَ في ... تلكَ الصفاتِ مكانَ الشِّعْرِ قرآنُ [2]

وسمة المبالغة والغلو واضحة في شعره ،ولعله اكثر منها لأجل اشباع غرور الممدوح وتحريك اريحتـــه ،فكما الشاعر أظهر صفات ممدوحه باجمل الصور كذلك مدح وافتخر بنسبه العربي الاصيل وذلـــك وهو يردد معاني التفاخر بالانساب العربية العريقة ،فقد كان الموحدين يرفعون أنسابهم الى قيـــس بن عيلان بن مضر [3] وقد اكثر من مدحهم ولعل السبب في ذلك يرجع الى ((انحسار المسلمين في أواخر عهد الموحدين وانخزال عناصر المجتمع نتيجة الضعف والانكماش أدى الى ضغط شعراء المديـــح على عروبة ممدوحيهم او على صدق إيمانهم وتمسكهم بالمبادىء المحمدية))[4] من ذلك قول الرصافي في عبد المؤمن : (من البسيط)

وآيةٌ كآياةِ الشمسِ بين يَدَيْ ... غزوٍ على المَلِكِ القيسيِّ مَنْذُورِ [5]

ويعني بذلك أن عبد المؤمن يرجع نسبه الى قيس عيلان القبيلة العربية الاصل وكان يقول ((اذا ذكر كمية التي ينسبه الناس اليها :لست منهم وانما نحن لقيس عيلان ولكمية علينا حق الولاة بينهم والمنشأ فيهم))[6] فيقول الرصافي يشيد بنسب ممدوحه العربي ويذكر له صفات له من بينها منـــزلته العـــالية وسجاياه التي نال بها رضا الناس عنه وحبهم اياه : (من الوافر)

---

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين : ١١٠.

(٢) الديوان :١٤٠

(٣) ينظر المعجب : ٣٦٥ .

(٤) أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية : د.سهير القلماوي و د. محمود علي مكي : ٤٨.

(٥) الديوان :٧٩ .

(٦) المعجب : ١٢٧ .

فتىً منْ قَيْسِ عيلانٍ تَــلاقى ... على سِيْمائِــهِ كَرَمٌ ونــورُ
تُضيءُ به البلادُ إذا تجــلىَّ ... وَتَغْرَقُ في مَكارِمِه البحــورُ
وَتُعْرَفُ مِنْ مَنازِلِه المعَــالي ... كما عُرِفَتْ من القَمَرِ الشُّهُورُ
تَشَبَّهَتَ المَلوكُ به وحَاشــا ... وذلــك منهُــمُ غَــيَّ وزوْرُ
وقد يقعُ التَّفاضَلُ في السَّجايا ... وَيُهْجَي الشَّوْكُ إن لُمِسَ الحرير [1]

فالممدوح من نسب عربي معروف بالمنــزلة العالية وعبد المؤمن وعشيرته انتسبوا الى قيس عيلان قال المراكشي : ((وهكذا ادركت من ادركت من اولاده واولاد اولاده ينسبون لقيس عيلان بن مضر)) [2] وفي قصيدة اخرى يشيد الرصافي بنسب ممدوحه محمد بن عبد الملك بن سعيد ويفتخر بانه يرجع الى عمار بن ياسر وهي قبيلة عنسية عربية الاصل يقول فيها : (من الكامل)

وَإذا ذكرتَ قبيلَةُ عَنْساً فَخُذْ ... ما شئتَ منْ شَرَفٍ وعزٍ سَرْمَداً
وكفاكَ منه اليومَ أَيُّ بقيّــةٍ ... كَرُمُوا لها أَصْلاً وطابُوا مَوْلِــدا
إنَّ الكرامَ بني سعيدٍ كــلمَّا ... وَرِثوا النَّدى والمجدَ أوْحَدَ أوْحَدَا
قَسَمُوا المعالي بالسَّواءِوَفَضَّلوا ... فيها عِمادَهُمُ الكبيرَ مُحَمَّــدا [3]

ان الشاعر في عامة مديحه وفي أحسنه لايخرج عن القصد والارادة والهدف فكان يقول الشعــر كلما وجد الى ذلك سبيلا ليرضي رغبة ملحة في نفسه ، ولتشبع رغبة الامراء فكان ذا عاطفة صادقة وخيال اصيل .

ولعل اهم ما يميز شاعرنا قصائده الوصفية وكما هو معروف في البيئة الاندلسية التي تتمتع بجمال ثر ،وروعة آسرة وتصطبغ بظلال وارفة والوان ساحرة ،وتتنفس في جو عبق وعطر يضاعف من روعتــه وبهائه ما يتخلل جنباتها من مواطن السحر ومظاهر الفتنــة التي تبعث الانبهار والدهشة في النــفــوس وترهف الاحساس بلطف جمالها وتزيد الانجذاب والتعلق بها [4] لذلك وجد الرصافي في مدينة مالقةمادته لوصف المناظر الطبيعية ،فكان يحب الطبيعة الجميلة حين تكون جزءاًمن وطنه الذي حرم منه فهو شديد الأسى على وطنه وله قصائد عديدة كلها في وصف دياره ومعاهــدها والتشوق اليها من ذلك قوله في

(١) الديوان :٩٠ .
(٢) المعجب : ١٢٧.
(٣) الديوان :٦٤ .
(٤) ينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين :١١٦ .

بلنسية : (من الطويل)

خليليَّ ما للبيد قد عَبَقــتَ نَشــرْا ... وما لِرُؤوسِ الرُّكْبِ قد رُنِّحَتْ سُكْرا

هل المسكُ مفتوقاً بمَدْرجةِ الصَّبا ... أم القوم اجروا مــن بلنسية ذكــرا

خليليَّ عُــوْجا بي عليهــا فأنــهُ ... حديثٌ كبُرْدِ الماءِ في الكبــدِ الحــرَّى

وبجِسْرِ مَعــانٍ والرُّصــافة إنَّــهُ ... على القَطْرِ أن يَسْقي الرُّصافَةَ والجِسْرا

نَباتٌ كأنَّ الخــدَّ يحمــلُ نــوْرَهُ ... تخــالُ لجينــاً في أعالــيه أَوْ تِــبرا

ومــاءٌ كترصيــعِ المجَّــرةِ جَلَّلَتْ ... نواحيَــهُ الأَزهــارُ فاشتبكتْ زُهــرا

كأَنَّ عَــرُوساً أَبــدع اللهُ حُسْنَها ... فصيَّــرمِنْ شَــرْخ الشبابِ لها عُمــرا

تُؤبَّــدُ فيها شَعْشَعانيَّةُ الضُّــحى ... إذا ضــاحَكَ الشمَسُ البحيرة والنهرا

تَزَاحَمُ أَنفاسُ الريــاحِ بزَهــرِها ... نُجُــوماً فلا شَيْطــانَ يقَربُها ذُعــرا [1]

فهذه العواطف الى جانب كونها نزعة وطنية يشترك فيها النــاس جميعاً لاتخلو من اعجــاب الفــرد الاندلسي بمظاهر الطبيعة في بلاده واماكنها الجميلة وخلواتها البديعة التي تكون جزءاً من ذكريات ،فهي اذن جزء من شخصيته ووجوده ،فلا يطيق فراقها والبعد عنها ،فقد عرفت بلنسية بالجمال الطبيعي حتى قال فيها صاحب المسهب ((فلا ترى فيها الا مياها تتفرع ،ولا تسمع الا اطياراً تسجع ، ولا تستنشق إلا ازهاراً تتفتح ...ويقال ان ضــوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الاندلس ،وجوّها صقيل ابــداً لاترى فيه ما يكدر خاطراً ولا بصراً لان الجنان والانهــار صدفت بها ... وحيث خرجت من جهاتها لاتلقي الا منازه ومساح)) [2] فالرصافي في وصفه لجمال وطنه شاعر واقعــي تحقيقي لذلك تجده عندما يتحدث عن بلنسية وجدته ينقل خصائصها الجغرافية في شعر جميل عذب [3] وقد يمتزج الوجد والحنين عند الرصافي بوصف البعــد والاغتراب وبكاء المدن وتذكر ساعــات الانس والانطلاق مع رفــاقه ،والاحساس بمرارة التشرد وقساوة الغربة في موطنه الجديد وهــذا ما نجده في بائيته الرقيقة في جرسها وموسيقاها .الثرية بخيالها وصورها ،العاتبة في مخاطبتها للمكان الحافل بالذكريات يقول فيها : (من البسيط)

يا عمروُ أَيْنَ عُمَيْرٌ منَ كَدُى يَمَنٍ ... لقد هَوَتْ بكَ ياعمرُو الرياحُ وبي

طولُ ارتحالٍ وأَحــظٍ غيرُ طائلــةٍ ... وَغَيْبَةٌ ناهَزَتْ عَشْراً مِنَ الحِقَــبِ

---

(١)الديوان : ٦٩ – ٧٠ .

(٢) المغرب في حلى المغرب : ٢/ ٢٩٧- ٢٩٨.

(٣) ينظر الديوان : قصائده (٢١، ٢٢، ٤١، ٤٨، ٥٦، ٥٧)

إيهٍ عن الكُدْيَةِ البيضُـــاءِ إنَّ لهـــا هَوَىً بقلبِ اخيكَ الواهِ الوَصِبِ
راوِحْ بنا السَّهْلَ من أَكنافِهَا وَأَرِحْ ركابَنَا ليلهَا هـــذا مِن التَّـــعبَ

ثم يخاطب السرحة بما يشبه العتاب بقوله :

ياعذبةَ الماءِ والظلَّ انعمي طَفَـــلاً حُيِّيتِ مُـــمْسِيَةً مَيَّادةَ القُضُب
ماذا على ظِلِّكَ الألمى وقد قَلَصَتْ أفياؤهُ لـــو ضَفَا شيئاً لمغْـــتَرَب
أهكذا يَنْقَضي نَفسي لديكَ ظمـــاً اللهِ في رَمـــقٍ من جارك الجُنُـــب
لولاكِ ياسرحَ لم نُبْقِ الفلا عُطُـــلا من السُّرَى ،والدُّجَى خفَّاقةُ الطُّنُب
و لم نَبتْ نَتَقاضى مِنْ مـــدامعـــنا دَيْنـــاً لتُرْبِكِ في رَقْراقِها السَّـــرب [1]

والقصيدة طويلة ،وكلها منطوية على الاسترجاع والتذكر لمجالسه مع اصحابه الفتيان ،تظللهم ريحانة الأدب وتعاقرهم ابنة العنب .

لاشك ان الرصافي في وصفه للطبيعة ولمعاهد وطنه الجميل لايقـــل اهمية في تصويره ووصفه للنجـــار والحائك والصفار ووصفه للاصيل فقد ابدع في ترصيع شعره بأروع الصور وباستخراج صورة جديدة ومعاني مخترعة من ذلك وصفه للاصيل بمقطوعة جميلة يقول فيها : (من الرمل)

وَعشيٍّ رائـــقٍ مَنْظَـــرُهُ قد قَصْرناهُ على صَرْفِ الشَّمُولِ
وكأنَّ الشمسَ في أثنـــائه أَلصْقَتْ بالأرضِ خَدّاً للنـــزول
والصَّبا تَرْفَعُ أَذيالَ الـــرُّبى ومحيَّاً الجوِّ كالسيـــفِ الصَّقيـــل
حَبّـــذا منـــزلُنا مُغْتَبَقـــاً حيثُ لاينظرنا غيـــرُ الهـــديـــل
طائـــرٌ شادٍ وغصنٌ مُنْثَـــنٍ والدُّجَى يَشْربُ صهباءَ الاصيـــل [2]

واذا وصف الحائك ابدع في تصويره وابتكر اجمل المعاني بقوله : (من البسيط)

قالوا وقد أَكْثَرُوا في حبِّه عَذَلي لو لم تمُتْ بمُذَالِ القـــدْرِ مُبْتـــذَلِ
فقلتُ لو أَنَّ أَمْري في الصَّبابة لي لأخْتَرْتُ ذاك ،ولكنْ ليسَ ذلك لي
عُلقِّتـــهُ حَبـــبَ الثَّغْرِ عَاطـــرَةً أَلْمَى المُقَبَّـــلِ أَحْـــوَى ساحرَ المُقَلِ
إذا تأَمَّلْتـــهُ أَعْطـــاكَ مُلْتَفتـــاً ما شئتَ من لحَظاتِ الشادنِ الغَزِلِ

(١) الديوان : ٣١- ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢٣.

غُزَيِّلٌ لم تَزَلْ في الغَزْلِ جائلــةً ... بَنانُهُ جَوَلانَ الفــكْرِ في الغَــزَلِ
جَذْلانُ تَلْعَبُ بالمِحْواكِ أَنْمُلُــهُ ... على السَّدى لَعِبَ الأَيّامِ بالــدَّوَلِ
ما إنْ يني تَعِبَ الأطرافِ مُشْتَغِلاً ... أَفْديه مِنْ تَعِبَ الأطرافِ مُشتغــلِ
جَذْباً بكفَّيه أَو فَحْصاً بأخمصــه ... تَخَبُّطَ الظَّبْيْ في أَشــْراكِ مُحتَبــلِ [1]

فالرصافي ،الى جانب اقتناصه الصور الرائعة ،نجده يستغل المحسنات البلاغية والايقاعات الصوتية من جناس ،كما في (الاول والثالث والخامس والسادس) ،وتكرار كما في بيته السابع ، كما يستفيد من الحوار المبتدىء به القطعة في زيادة حركة اللوحة الشعرية وتنشيط حيويتها ،واحيانا يكسب صورته الواناً مختلفة كما في مقطوعته التي يصف فيها الصفار بقوله : (من الطويل)

يقولونَ لي يوماً وقدْ مرَّ ضــارباً ... بِمِعْوَلِهِ ضَرْبَ المُرَجِّمِ بالغيبِ
تعلَّمَ صفَّاراً فقلتُ : اسْتعارَهَــا ... غداةَ رَنَا من صِبْغَةِ العاشقِ الصبِّ
يعودُ النحاسُ الاحمرُ التبر عَسْجَداً ... بكفَّيه عند السَّبْكِ والمدِّ والضَّرْبِ
فحُمْــرتهُ مُشْتَقَّــةٌ من حَيَائــهِ ... وصَفْرَتُهُ مما يخافُ من العَتْــبِ [2]

لقد لون لوحته بالتبر الاصفر والاحمر المتأتي من الحياء واللون الاصفر بسبب الخــوف والعتب الــذي سوف يلاقيه .وفي ديوانه تجد امثالا كثيرة لهذه الصور التي تدل على قدرته في الابداع الشعري كما في وصفه للجبل وللنهر والى غيرها كثير.،ويزداد الرصافي ابداعاً في وصفه للدولاب وهو((ظاهرة حضارية آنذاك ، يصنع ويركب في الحدائق والبساتين ليقوم بريها وايصال المياه اليها ،فكان لحركته وأنينه وقــع خاص على حواس الشعــراء واثارة لرؤى شعرية في مخيلتهم ،فرأوه عاشقاًيبكي بدموع غزيرة لفــراق احبائه ، وتصوره اخرى يغني ويعربد دون طرب ولا خمر واقامــوا من الرياض حوله شامتاً ومتشفــياً ،تضحك لبكائه ،وتفرح لشجوه ،فتحدثوا عنه وكأنه انسان يحــس ويعي، يعشق ويحــب ، يــبغض ويبتسم)) [3]

لقد برزت ظاهرة الاهتمام بوصف الدولاب في عهد الموحدين وكان الرصافي البلنسي اول من قال فيه،وقد ابدع في ابياته التي كانت محتذى لكثيرين بعده ، تأثروا بها ،واستغلوا صورها وتشبيهاتها ومنهم ابن الابار ،وابوالحسن علي بن سعيد الاندلسي ،وابوسعيد المغربي ،فقال الرصافي في الدولاب :

(من مجزوء البسيط)

---

(١) الديوان ١٢١- ١٢٢.

(٢) المصدر نفسه : ٤٨.

(٣) الشعر في عهد المرابطين والموحدين : ١٤٣ .

وَذي حنينٍ يَكادُ شـــجْواً ... يَختَلِسُ الأَنْفُسَ اختِلاسَـــا
إذا غدا للرياضِ جَـــاراً ... قالَ لها المحلُ : لا مِسَاســـا
تَبسَّمَ الزَّهْـــرُ حينَ يبكي ... بأدمـــعٍ ما رأيـــنَ باسَـــا
من كلِّ جَفْنٍ يسلُّ سَيْفـــاً ... صـــارَ لها غِمْـــدُهُ رِئاسَـــا [1]

ان الرصافي لم يقف عند الشكل المرئي للدولاب ولاعند هيكله ومظهره وانما أثارته اشياء اخرى فيه ،كالصوت والحركة وجريان الماء ثم توسعت رؤياه فانسحبت على الريـــاض والازهار موجدة تجاذب وترابط بين الدولاب والنبات وقد تتشكل عناصر رؤيته من الطبيعة اوتستوحي من مجالس الشرب وغير ذلك .وممن احتذى واتكأعلى معاني الرصافي السابقة الشاعر ابوسعيد المغربي في قطعة يقول فيها :

ومحنية الاصلاب تحنو على الثرى ... وتسقي نبات الترب دمع الترائب
تظن من الافـــلاك أن مياهـــا ... نجوم الرجم المحـــل ذات ذوائـــب
واطربها رقـــص الغصون ذوابـــلا ... فدارت بأمثال السيوف القواضب [2]

وفي المعنى نفسه نظم ابوالحسن علي بن سعيد الاندلسي بقوله :

وذات حنين لاتزال مطبـــقة ... تئـــن وتبكي بالدموع السواكب [3]

فمعنى الحنين ورجم المحل وطرب الغصون وانهار السيوف كلها معان مسبـــوقة في قطعة الرصافي السابقة .

لقد ابدع الرصافي في الوصف ،وكيف لا وقد عاش في بيئة جميلة ذات مناظر فتانة توحي بالشعر مذ كان في بلنسية الى ان انتقل الى مالقة وغيرها من المدن ذات الطبيعة الخلابة ،فكانت قصائده والمقطعات الشعرية تشغل من جاء بعده ،وكثر التولع بمحاكاتها لدى كثير من الشعراء المعروفين في الاندلس ،فكان الوصف احد الفنون التي برع فيها الشاعر واكثر منها ،وكانت اوصافه للطبيعة وما فيها وهي كثيرة في عصره ـ سجلاحافلا – وتاريخا صادقا ،صور فيها تصويرا دقيقا رائعا ،وهـــو من اجل ذلـــك اكـــثر الشعراء وصفا في هذا المجال ،كما يعد في هذا الفن الممهد لغيره من الشعراء في عصره .

وثمة جانب من شعر الرصافي املاه عليه موقفه من زعامة الشعر في عصره وهو مراسلات بينه وبين اصدقائه في ارجاء الاندلس من ذلك قصيدته التي اجاب فيها على خطاب ابوعمر ابن حربون الشلبي بقصيدة مطلعها :

---

(١) الديوان :١٠٢.

(٢) المغرب في حلى المغرب : ١٦٩/٢ ، وينظر نفح الطيب :٢٨١/٢ .

(٣) ينظر تكملة الابيات في نفح الطيب : ٢/ ٢٨٨.

لله ما هاج لمع البارق الساري على فؤاد غريب نازح الـــدار

فأجابه الرصافي بقصيدة يقول فيها : (من البسيط)

وأَرْضُ شِلبٍ وما شِلْبٌ وإن وَلَدَت غمارَ ناسٍ فناسٌ غَيْرُ أَغْمـــارِ
عُرْفُ التَّحاورِ من تلقاءِ أَلسْنُهِـــمْ كأنما نَشَـــأُوا في غَيْرِ أَمْصـــارِ
يُلْقُونَ بالقَوْلِ مَوْزُوْناً وما قَصـــدُوا كأنَّ ذلـــك منهم عَقْدُ إظمارِ [1]

اما ما تبقى من قصائده في الرثاء والهجاء فلا يميزه شيء واضح فيهما ، ففي ديوانه اكثر من قطعة وقصيدة في رثاء محبوبه (يوسف) وهو في كل مراثيه رقيق عذب رشيق يقتنص المعاني والصور وحسن التعليل ، فقال يرثي يوسف :(من الكامل)

ياوردةً جادَتْ بها يَدُ مُتْحفـــي فَهَمى لها دَمْعي وَهَاجَ تَأَسَّفِي
حَمْراءُ عاطِرةُ النَّسيـــمِ كأَنَّهـــا مِنْ خدِّ مُقْتبلِ الشَّبيبةِ مُتْـــرِفِ
عَرِضَتْ تُذكرِّني دماً مِنْ صاحبٍ شَرِبتْ الدُّنيا سُلافَـــةَ قَرْقَـــفِ
فَلَثَمتُها شَغَفـــاً وقلتُ لعَبْـــرَتي : هِيَ ما تَمُجُّ الارضُ منْ دَمِ يُوْسُفِ [2]

فاحمرار الوردة تذكره بيوسف لأن صبغته بقايا ما تـــنتجه الارض من دماء حبيبه القتيل ،وفؤاد الشاعر بسبب ذلك كليم جريح ،ومقلته حمراء باكية اشبه بجرح يقطر دماً :(من الخفيف)

لا تَسَلْ بَعْدَ قَتْلِ يُوَسُفَ عَنِّـــي ففؤادي مُثَلَّـــمُ كسَلاحِـــهْ
لو تأَمَّلْتَ مُقْلتَي يَـــوْمَ أَوْدَى خِلتْتَني باكيـــاً ببعضِ جِرَاحِهْ [3]

ومما يلاحظ في مراثي الرصافي الهدوء النفسي الذي غلب عليها جميعاً ،ولعل طبيعة الفن الذي جـــاءت فيه من اسباب ذلك فهي في تأبين صديق حميم للشاعر كما تدل على ألم الشاعر وحزنه العميق وجاءت بأسلوب واضح الدلالة والسهولة في التعابير .

لقد طرق الرصافي البلنسي كل اغراض الشعر المعروفة في عصره وكان مجيداً في رثاء لمحبوبه أذ اعرب عن حزنه بشعر هو البكاء والدموع ،وكان اصيلا مجيداً في فخره وطماحه الى المجد وفي انساب ممدوحيه العربية الاصيلة . ولئن كان حظ العاطفة كبيراً من اكثر ما قال في هذه الاغراض ،وكان حـــظ الصور والاخيلة مرتبطاً بهذه العاطفة فجـــاءت تراكيب ابياتـــه محكمة السبك واضحة بالعاطفـــة والخيـــال ،

(١) الديوان :٩٢-٩٣ .

(٢) المصدر نفسه : ١١١.

(٣) المصدر السابق نفسه :٥١ .

حتى جاءت القصيدة ضمن اطار فكرة سائدة فبدت القصيدة بعيدة عن التكلف والتصنع .

اما اغراضه الاخرى في المديح والغزل والوصف فتقوم أول ما تقوم على المهارة وبراعة النظم وذلك من اجل غاية خارجة عن طبيعة نفسه وطبيعة الشعر ، فهو عندما يمدح ويعدد صفات ممدوحه انما يريد أن يرضي أناساً بعينهم ، وأن مثل هذا الشعر في المدح وغيره ينشد في المجالس ،لذلك يجب ان يكون ذا ذوق خاص فهي تعجب بغرابة الالفاظ المنتقاة وغرابة الجناس والطباق والاستعارة والكناية ، ولما كان لشعر المهارة قيمة تأريخية فان أهمية الرصافي الاولى تأتي من شعره الاصيل في المدح والرثاء والفخر والوصف ،حيث يجد المتلقي العاطفة والخيال والبناء المحكم الصادق في تعبيره عن هواجسه ،ويجد اسراراً من طوايا نفس الشاعر فقد كان شاعراً مجودا جيد النظم قوي السبك سهل البديهة فنرى في الرصافي البلنسي شاعراً هو اكبر شعراء العربية في ((عصر الموحدين في الاندلس)) .وهذه خاتمة القول في الرصافي وشعره وعسى ان لايكون هذا آخر ما يكتب عنه ، بل يكون فاتحة لدراسة جديدة لهذا الشاعر والكشف عن جوانبه الفنية الابداعية . والله المسددللصواب .

مصـــادر البحـــث ومراجعـــه

- أثر العرب والاسلام في النهضة الأوربية : د. سهير القلماوي ، د. محمود علي مكي ،الهيئـة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة ،١٩٧٠ م.
- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : د.محمد مجيد السعيد ، دار الرشيد للنشر ،العراق ،١٩٨٠.
- المعجب في تلخيص اخبار المغرب :عبد الواحد بن علي المراكشي (ت ٦٤٧هـ) تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣م.
- المغرب في حلى المغرب : لابن سعيد ابو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت٦٨٥هـ) ،تحقيق د.شوقي ضيف ،مطبعة المعارف بمصر ، ط٢ ،١٩٦٤م.
- الوافي بالوفيات : صلاح الدين بن ابيك (ت ٧٦٤هـ) باعتنـاء هلموت ريتر ، دار النشـر، طهران ، ١٣٨١هـ ، ١٩٦١م.
- تكملة الصلة : لابن الابار عبد الله محمد بن عبد الرحمن القضاعي (ت ٦٥٨هـ)نشره السيـد عزت العطار الحسيني ، القاهرة ، ١٩٥٥م
- ديوان ابن خفاجة : ابو اسحاق ابراهيم بن ابي الفتح (ت ٥٣٣هـ) تحقيق د.مصطفى غـازي ، مطبعة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٦٠م.
- ديوان ابن الرومي : ابوالحسن علي بن العباس بن جريح (ت ٢٨٣هـ) تحقيق د. حسين نصار ،مطبعة دار الكتب بالقاهرة ،١٩٧٤م.
- ديوان ابي تمام :حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٢٨هـ) شرح الخطيب التبريزي، تحقيق عبده عزام ، دار المعارف بمصر ١٩٥١م ،وطبعة د.شاهين عطية ،بيروت ١٩٦٨م.
- ديوان ابي حيان الاندلسي : محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي الاندلسـي (ت ٧٤٥هـ) تحقيق د.احمـد مطلوب و د.خديجة الحديثي ، مطبعة العاني ،بغداد ،١٨٣٨هـ ،١٩٦٩م.

- ديوان الرصافي البلنسي : ابو عبد الله محمد بن غالب (ت٥٧٢هـ) جمعه وقدم له د.احسان عباس ،دار الثقافة ،بيروت ،١٩٦٠م.

- ديوان ذي الرمة : غيلان بن عقبة (ت ١١٧هـ) جمعه شيربموت ،المطبعة الوطنية ،بيروت ١٩٣٤م.

- زاد المسافر : ابو بحرصفوان بن ادريس المرسي التجيبي (ت ٥٩٨هـ) ،تحقيق عبد القادر محداد ،دار النشر ، بيروت ،١٩٣٩م.

- عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية : لابي العباس احمد بن احمد الغبريني (ت ٧٠٤ هـ - ١٣٠٤م) .

- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب : احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ) ،تحقيق د.احسان عباس ، دار صادر ،بيروت ،١٩٦٨م.